عبدالنبي اصطيف

الاقتباس..
وإعادة صياغة وسبك الموضوع

كثيراً ما يفهم القارئ مصطلح (الاقتباس) على أنه استشهاد بنص محدَّد بفاصلتين في متن ما، لكاتب ما، يتناول فيه قضية أو مسألة، يستعين على رأيه فيها بهذا (الاقتباس) أو (المقبوس)، ليدلِّل به على صواب ما يراه، أو خطأ ما ينقضه، أو ينقده. والحقيقة أن هذا الفهم مُجانب للصواب تماماً، عندما يتعلق الأمر بالدرس المقارن للأدب، لأن (الاقتباس) ليس إلا إعادة صياغة لعمل فني، أو سبكه من جديد لكي يتفق مع: متطلبات وسيط فني آخر، أو جنس فني آخر، كتحويل قصة ما إلى فيلم روائي قصير أو طويل، أو تحويل رواية للأطفال واليافعين إلى مسلسل تلفزيوني، أو تحويل مسرحية إلى رواية، وغير ذلك من أشكال التحويل، التي تتم من وسيط فني، أو جنس أدبي، إلى آخره... وحاجات مجتمع معين، استدعتها تطورات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية في هذا المجتمع. وإمكانات مجتمع معين يسعى إلى التطور والتنمية والخروج مما هو فيه من ركود وتخلف. وجعلته يسعى إلى تلبية هذه الرغبات بمحاكاة أعمال أدبية وفنية وافدة، على نحو ينسجم مع أوضاع هذا المجتمع وقيمه وعاداته وأعرافه.

وإذا ما رغب المرء في الاستشهاد بمثال واقعي على هذا الاقتباس، فإنه يمكن أن يشير إلى رسالة ابن فضلان، والتي حوّلها الروائي الأمريكي مايكل كريتون إلى رواية حملت عنوان (أكلة الموتى)، طوّر فيها أحداثها، ومضى بمؤلفها الأصلي أحمد بن فضلان إلى الفسحة الإسكندنافية، حيث خاض، مع ثلة من رجال الفايكنغ، سلسلة من المغامرات التي أنقذ بها أحد ملوك الشمال الأوروبي.

والواقع أن استلهام مايكل كريتون لـ(رسالة ابن فضلان) في روايته العالمية (أكلة الموتى)، مبادرة متميزة بحق، تمزج ما بين الإفادة من الترجمة المتاحة للعمل الأدبي، الذي ينتمي إلى تراث (الآخر)، وبين توظيف متنها في العمل الأدبي الجديد، على نحو إبداعي يسمح بتطوير أحداثها تطويراً موفقاً لرحلة تجمع بين الواقع والخيال. وهي مبادرة حوّلت الرسالة من متن تاريخي شغل الباحثين والدارسين والمترجمين، بسبب صلته الحيوية بالتاريخ القديم لروسيا، إلى عمل أدبي يُترجَم إلى مختلف اللغات، ويُدرَّس دراسةً مقارنة على نحو واسع، بوصفه كتاب رحلة مثيرة إلى أقصى درجات الفضول الإنساني المتصل بالآخر، الذي غدا في الرواية (آخر) مركّباً، يضمّ الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي في آن معاً.

ومما عزّز إسهام (مايكل كريتون) في إدخال هذا العمل الأدبي إلى دائرة الأدب العالمي، أمور عدة، منها: أنه اختار جنس الرواية أداة لهذا الإسهام؛ وأنه جمع في عمله بين الواقعي والخيالي، ما أدخل العمل في ضرب من الغموض المثير، الذي أصاب سحره عدداً من الدارسين العرب، الذين توهموا أن (الجزء الخيالي) من الرحلة، هو جزء مفقود عُثر عليه لاحقاً من جانب كريتون، فقام بترجمته إلى العربية على أنه جزء متمِّم لما هو

> **تعتبر (رسالة ابن فضلان) مثالاً واقعياً على الاقتباس**

بين أيدينا من متن واقعي؛ إلى جانب أنه ألف روايته بلغة عالمية، هي الإنجليزية، يستعملها نحو ثلث سكان العالم؛ وأنه صدر في مغامرته الروائية هذه عن رصيد غني واسع الانتشار من أعماله الروائية، التي تحوّل بعضها إلى أفلام عالمية، فضلاً عن مسلسله ذائع الصيت (غرفة الطوارئ ER).

لقد غدت رواية أكلة الموتى لـ(مايكل كريتون) باستلهامها (رسالة ابن فضلان)، في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، التي قام بها سنة (٣٠٩هـ/٩٢١م)، واحدة من أكثر الروايات مبيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية، منذ ظهور طبعتها الأولى عام (١٩٧٦م)، وتحوّلها لاحقاً إلى فيلم فتن الناس بما انطوى عليه من مغامرات وشجاعة ونبل وقيم، قدّمت في إطار شائق من حوار الثقافات.

وهي تمثل بحق أنموذجاً رائعاً للتلقي الإيجابي الاستلهامي، لنص أدبي عربي كلاسيكي تم في مجتمع (بل مجتمعات) غير مجتمعه الأصلي، أي خلف حدود بلده ولغته وثقافته، ويسّرتها ترجمة مجتزأة له، أوقدت في نفس متلقيها جذوة الإلهام، فكتب روايته (أكلة الموتى)، وتمكّن من خلالها من توطين النص العربي في الثقافة الأمريكية خاصة والثقافة الغربية عامة. وربما كان من أهم العوامل التي ساعدته في هذا التوطين أنه تأسس على قاعدة من الاستيعاب العميق للرحلة. فقد قام الرجل بدايةً بدراسة كل ما تيسّر له من كتابات عن ابن فضلان ورحلته، وبعد تمثله لأهمية عمل الرحالة، قرر أن يقدمه لقارئ اللغة الإنجليزية من خلال رواية يقتسم تأليفها مع ابن فضلان.

وهكذا؛ فإنه اعتمد على ما بين يديه من ترجمات لرحلة ابن فضلان، وصنع منها فصول روايته الثلاثة الأولى، ثم انطلق بابن فضلان في الفصول التالية، وأقحمه بوصفه المحارب الثالث عشر في سلسلة من المغامرات، التي جمعته باثني عشر مقاتلاً من مقاتلي الفايكنغ، اقتسم معهم فيها كل شيء، وقدّم لنا في أثناء ذلك المزيد من الوصف الدقيق لشجاعتهم وإقدامهم وتعاونهم ومعاملاتهم، فضلاً عن وصفه لأعدائهم (مسوخ السديم)، ومواجهتهم لهم والقضاء على تهديدهم الخطير لجيرانهم. وقد تعزز هذا التوطين بتحويل الرواية إلى فيلم روائي عالمي حمل عنوان (المحارب الثالث عشر)، أخرجه كل من جون ماك تيرنان وأنطونيو براندیراس، وسع من دائرة التلقي مثلما عمق فعل التلقي ذاته، عندما جعله تلقياً حياً (بالصوت والصورة) شاملاً، يسّره الفن السابع.

الجدير بالذكر، أن مايكل كريتون، عندما نقل، بتحويرات محدودة، ما تُرجم من الرحلة إلى الإنجليزية، قد قيّد نفسه بأسلوب ابن فضلان في بقية الرواية، عندما كتب فصولها التالية بأسلوب رسالة ابن فضلان ذاتها، ثمّ مضى بعدها بالرحّالة إلى الشمال الإسكندنافي في باقي رحلته، التي غدت منذئذٍ رحلة خيالية، حتى إنه أضاف إليها تعليقات وحواشي متعالمة على نحو متطرف، ليُعزِّز محاكاته لأسلوب ابن فضلان، ما أوقع أحد الباحثين العرب في وهم عجيب، مفاده أن الرواية إنما هي استكمال لما ضاع من رحلة ابن فضلان، فقام بترجمة الرواية وقدمها للقارئ العربي، مشفوعة بالنص العربي الذي حققه سامي الدهان، على أنها النسخة الكاملة لرسالة الرحالة العربي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس نحواً من ألف عام.

وإذ أطلقت الرواية والفيلم اهتماماً واسعاً في أوساط الدارسين العرب والأجانب، حفز على ترجمتها كاملة إلى عدد من اللغات، فقد قام كاتب سيناريو معروف باقتباس مسلسل تلفزيوني، استند فيه إلى رسالة ابن فضلان، وإلى رواية مايكل كريتون، فضلاً عن فيلم (المحارب الثالث عشر)، أخرجه المخرج نجدة أنزور، وحمل عنوان (سقف العالم)، عرض على أكثر من قناة عربية، وروّج من ثم لإعادة قراءة عربية وأجنبية للرحلة، وللرواية، وكان وراء صدور عدد كبير من الدراسات والبحوث والكتب، والرسائل الجامعية المتصلة بالعلاقة ما بين (العربي) و(الآخر)، وصورة كل منهما في نفس الآخر.

ومعنى هذا: أن هذا التحوّل الذي خضعت له رسالة ابن فضلان: بداية إلى رواية، ثم إلى فيلم روائي، ثم إلى مسلسل، ويسرته عمليات الترجمة من العربية إلى الإنجليزية، ومن الإنجليزية إلى العربية، ومن وسيط إلى آخر، ومن جنس أدبي إلى آخر يجسّد مثالاً واضحاً على الاقتباس، كما يفهمه النقد المعاصر، وكما يختبره عالمنا المعاصر.

لقد حولها مايكل كريتون إلى رواية حملت عنوان (أكلة الموتى)

حوّر كريتون في أحداث الرواية وطوّر في بعضها وجمع بين الواقعي والخيالي

أصبحت أكثر الروايات مبيعاً وتحولت لاحقاً إلى فيلم سينمائي ومسلسل درامي